العرب
الأحد 2020/09/27
السنة 43 العدد 11833

آثار الإنتاجوية على الأرض تنبئ بكارثة

هيمنة بروميثيوسية قد تحرق الأخضر واليابس

إن النظريات الأكثر نفوذا في العالم، أي الليبرالية والاشتراكية والماركسية، التي خاضت صراعا منذ القرن التاسع عشر لتحديد مستقبل المجتمعات الصناعية تشترك في الحض على الإنتاج الذي همّش البدائل الإيكولوجية، فهل نشـــهد اليوم نهاية هذه الهيمنة؟ هذا السؤال طرحه المفكر الفرنسي سيرج أوديي في كتاب ضخم (820 صفحة) نشره قبل سنة، تحت عنوان "العصر الإنتاجوي، الهيمنة البروميثيوســية، ثغــرات وبدائل إيكولوجية"، ويجد اليوم صدى أوسع بعد ظهور جائحة كوفيد - 19.

الإنتاج الصناعي يدمر العالم

حماة الطبيعة فشلوا في إنقاذها

أبو بكر العيادي
كاتب تونسي

"العصـر الإنتاجـوي، الهيمنـة البروميثيوسـية، ثغـرات وبدائـل إيكولوجيـة" عنـوان آخـر كتـب المفكر الفرنسـي سـيرج أوديـي. المقصـود بالإنتاجويـة (productivisme) هـو ربط الإنتاجيـة (productivité) بالتنمية (développement) وجعلها غاية قصوى، والمصطلح، رغم غموضـه الأيديولوجي، هو أداة محورية لفهـم ما يربط المواقف النظرية والسياسـية التـي أوهمت زمنا طويـلا بتناقضهمـا، وبوصفـه سـعيًا لا يعـرف حـدًا للإنتاج المفـرط، لا يمثل فقـط عرضـا مـن أعـراض الصّناعيـة (industrialisme) كنظام يرى في الصناعة الغاية الرئيسية التي يتوق إليها الإنسان في المجتمع، بل يسـاهم فـي تبيّن بُعدها الجوهري الذي كان ولا يزال غير منفصل عـن الرأسـمالية وعن تاريخ الشـيوعية والاشتراكية وجانب واسع من اليسار.

يبدأ الكتاب بالتذكيـر بعناصر باتت الآن معلومـة عـن حجـم التدميـر الذي تسـببت فيـه الرأسـمالية الصناعيـة، كالاحتبـاس الحراري، وانقراض الأنواع، وتدميـر الأراضـي وتلويـث الهـواء والمحيطات، بيد أنه يندرج ضمن مسلكين مؤسسين للتاريخ البيئي.

يتمثل الأول في إعـادة قراءة التنمية الرأسـمالية الصناعية مـن زاوية أثرها علـى طبيعة تحـول أنظمـة الإنتاج، عن طريـق اللجـوء إلـى الطاقـات الجوفية والكيمياء والآلات. أما الثاني فيقوم على رفض الفكـرة التي مفادها أن الشـركات المعاصرة مضت في تدمير كلّ ما له علاقة باقتصادها الصناعـي بغير مبالاة حتى السـتينات والسـبعينات، تاريخ انطلاق مزعـوم لـ"الحداثة المتأمِّلـة". وَهذا غيرُ صحيـح، فالتحذير من آثار الرأسـمالية الصناعيـة علـى الطبيعـة هو فـي مثل أقدميتها، وهي التي لم تقم إلا بعد أن أتت على المقاومـات والتعديلات القديمة التي كانت تحمي الأهالي من أضرار الأنشـطة الإنتاجية.

وكان كلّ تحـوّل فـي أنمـاط الإنتاج يحمـل معه حصّتـه من مخـاوف تدمير الطبيعـة ومـا ينجـم عنها مـن مخاطر على البشـر. تلك التحذيـرات التي طالما أدرجت ضمن مخاوف المتخلفين عن ركب التّقدّم، صـارت اليوم دليلا على بُعد نظر أصحابها، ولم يعد الناس يتسـاءلون أيّ باثولوجيـا أصابت أولئـك المحذرين، بل باتوا يتسـاءلون ما الذي منع خصومهم من سماعهم.

عالم جديد

منذ نهاية القرن التاسـع عشر، كان عالم الجغرافيا الفرنسـي فرانز شرادر (1844 – 1924) قـد نبّـه إلى مـا يُلحقه النشاط البشـري بالثروة النباتية التي نتجت عـن تعاون بـين الجـوّ والكرة الأرضيـة منـذ غابـر الأزمنـة، وربـط في تحليلـه بـين "التدمير العسـكري والصناعـي" و"تدمير الشـعوب التي تنعت بالدّنيا".

كانـت أوّل لحظـة تمّ درسـها هي لحظة تأسـيس الهيمنة الإنتاجوية في القرن التاسع عشر، وقد شهدت صراعا بـين الدّاعين إلى التصنيـع والمدافعين عن الطبيعـة، انتهى لصالح القطب التصنيعـي، فـي خلفية تمجيد واسـع النطاق للتقدم الصناعي والعلمي كشـرط للوفرة والتقدم الاجتماعي للجميع.

والكاتـب يحلـل تحمّـس النخبـة للتقنيـة، لاسـيما الفيلسوف سان سيمون (1760 – 1825) الذي نادى بتنظيم المجتمع حـول نخبـة المهندسـين، كحملة تقدّم وفلسـفة نشيطة لغزو العالم، وكان مـن أهـم أتباعه مارسـيلان بيرتيلـو (1827 – 1907) الذي اعتبر أنّ الكيمياء التي تطوّر اكتشافاتها بغيـر ضابـط قـادرة اليـوم علـى أن تصنـع الأغذيـة وتعـوّض الصناعات الفلاحية، القائمـة على إنتاج الكائنات الحيّة من حيوان ونبات، في خلق موادّ غذائية.

وقد وجدت هذه الدعوة صداها لدى الشـيوعي إتيان كابـي (1788 – 1856) أول من أطلق على نفسـه صفة شيوعي عام 1840، فقد دعا هو أيضا إلى تحرير البروليتاريـين عن طريـق الآلة. ذلك أن بـين عصـر الاشـتراكيين الطوباويين ونهاية القـرن، كان ماركس وإنجلز قد صاغا نقدهما للرأسـمالية الصّناعية. بيد أن علاقتهمـا بالإيكولوجيا لم تكن واضحـة، فالفكـر الماركسـي توجهـه ماديتـه نحو الاهتمام بمسـار الفلاحة العصرية، ويكبحـه خوفه من أن يؤدي السـعي إلى الربح علـى المدى القصير إلى تجفيف الموارد الأرضية على المدى الطويل، غير أن ذلـك، في نظر الكاتب، لا يكفي لجعـل الماركسـية إيكولوجية سابقة لعصرها.

صحيـح أن الـدور التاريخـي للبورجوازية الرأسمالية في ظهور عالم جديـد كان بغـرض الهيمنـة الطبقية، ولكـن ذلـك سـمح بتحقيـق إنجازات مذهلـة، ورد ذكرهـا مفصّلة فـي بيان الحزب الشـيوعي؛ "إخضاع الإنسـان لقوى الطبيعة، أوالية، تطبيق الكيمياء فـي الصناعـة والفلاحـة، اسـتعمال السـفن البخاريـة والسـكك الحديـد والتلغـراف الكهربائـيّ، اسـتصلاح قـارات بحالهـا، تعديل تدفـق الأنهار، انبثـاق شـعوب كاملة مـن الأرض، ما هو القـرن الماضي الذي يشـكّ أن مثل هذه القوى الإنتاجية كانت نائمة داخل العمل الاجتماعـي؟" وماركس وإنجلز، وإن كانا ضد أشـكال الهيمنة القديمة، كانا يعتقدان أن الرأسـمالية الصناعية والبورجوازيـة ينبغـي عبورهمـا لا تفكيكهما.

لقـد تدعّـم البعـد الإنتاجـوي للماركسـية وتصلّب كلّما أعـاد القادة الاشـتراكيون قراءتـه، لاسـيما قـادة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية. وكانت روزا لوكسـمبورغ قد كتبت من سجنها عام 1917، تماشيا مع ثيمات دافع عنها أوغسـت بلانكي ولويز ميشيل وإيليزي ريكلو أنها علمـت "أن الطيور المزقزقة في ألمانيا تختفي" وكانت تتأسف لزوال تلك الكائنـات الصغيرة العـزلاء التي تذكـر بسـكان أميركا الأصليـين الذين طردهم الإنسـان المتحضر شيئا فشيئا من أراضيهم، وآل بهم أمرهم إلى موت صامت فظيع.

أما في فرنسـا فقـد كان جول غيد وجـان جوريـس يشـتركان فـي فكرة "التقـدم الضـروري والمفيـد لأوالية العصر الرأسـمالي الصناعيـة، بينما أدى إدخـال الماركسـية إلـى روسـيا إلـى تصفيـة إرث الأنارشيسـت وعزم الشـعبويين علـى عـدم معرفة مسـار تحديثي على المنوال الغربي.

تسريع آثار الإنتاج

يبين الكاتب كيف أن الحرب العالمية الأولى والثورة الروسية خلقتا ثغرة في الهيمنة الإنتاجوية، ولكنه إذ يفنّد علاقة الإيكولوجيا في العشرينات والثلاثينات بالنازية، يشير إلى عدة مواطن قلق إزاء الطبيعة. مـن بينها تجمعات عالمية لحماية الطبيعة مثل المؤتمر العالمي الذي انعقد في برن عام 1913، وكان المشـاركون فيه قد عبّـروا عن تعلقهم بالجمال الطبيعي الـذي تتهدده الصناعـة وتبديد الموارد (كاستعمال زيت الحوت لصنع الصابون مثلا)، ولكـن حرصهم علـى الحماية لا يندرج ضمن نقد للرأسمالية الصناعية.

والمفارقة أن نقاد الرأسـمالية كانوا يتجاهلـون الجدل القائم حـول البيئة، فيما كان المدافعون عن البيئة لا يملكون القـدرة علـى فهم منطـق الرأسـمالية التدميـري ولا يملكـون أدوات تحليله. إذ أن أغلـب القلقـين من تلـك العواقب المدمرة كانوا منشـدّين إلـى النظريات المحافظة خـلال الثلاثينات، والتي ترى فـي الطبيعة بديلا للحداثة، وفي المدينة الكوسـموبوليتية أفظـع صـورة لتلك الحداثة.

> حماية الطبيعة نظّر لها اليسار سابقا ودافع عنها محافظون معادون للحداثة وبورجوازيون يرومون الحفاظ على فضاءات استجمام

من جهة اليسـار، لـم ينهزم الموقف المتصلّـب تجـاه كل فكر يمجّـد روابط البشـر بـالأرض إلا بعـد لأْي، ولكـن بقيت منه أقليات لم تسـتطع أن تواجه بمفردهـا تنامي النظريـات الإنتاجوية والتخطيطية التي تشـكلت في فترة ما بين الحربين، وانطلقت بعد 1945.

والكاتـب يحلل بعمـق دور الحرب العالميـة الثانيـة فـي تسـريع آثـار الإنتاج البشـري علـى الطبيعة، يصح ذلك علـى البلدان الغربيـة مثلما يصح علـى الصـين والاتحـاد السـوفييتي، فقـد هيمنت إرادة التنميـة الاقتصادية علـى كل القـرارات عقب الحـرب، وكان موريـس توريـز الأمـين العـام للحزب الشـيوعي الفرنسـي من 1930 إلى 1964 يحثّ العمـال قائلا "الإنتـاج، الإنتاج، ثـم الإنتـاج، إنتـاج الفحم هـو اليوم أرفع شكل من أشـكال واجبكم الطبقي، وواجبكم كفرنسيين". بينما كان أندراي فيشينسـكي يشـرح أمـام منظمة الأمم المتحدة "نحن نسـتعمل الطاقة النووية لإزالة الجبـال، وتحويل مجرى الأنهار، وريّ الصحـاري. نسـتخدم الطاقة النووية لنحمـل الحياة إلى حيث لم يجد الإنسـان حتـى الآن غير البـؤس". ولـم تكـن الكـوارث البيئيـة في الصين الشـيوعية أقـل فظاعـة، عمـلا بالتوجيه الماوي "اجعلوا الجبل الشاهق يحني رأسه". وكان من أثر ذلك أن القوة الذرية التي تغذّي تلك الأحلام هي نفسـها التي ولّدت مخاوف مسـتجدة من إمكان تدمير الأرض كلها، بعد أن اسـتخدمها الأميركان في نهاية الحرب، ولكن الأصـوات التي عبّرت عن تلك المخاوف أمثال جـاك إيلّول وبرنار شـاربونّو وغونترس أنـدرس وألدوس هاكسلي ظلت أقلية معزولة.

الأسس الإنتاجية

تغير الوضـع مع موجات الاحتجاج خـلال السـتينات، وكان منطلقهـا في الولايـات المتحـدة نقد العلاقـات التي تربـط بـين الصناعـة والجيـش، ثـم ظهرت نظريـات تربط نقد الرأسـمالية بنقد مجتمع الاسـتهلاك (هنري لوفيفر وهربرت ماركوزه) تلمست طريقا جديدة نحو الاشـتراكية (أندري غورز) وجددت العهـد مع التقليد التحرري لأجل تصور إيكولوجيا سياسية غير سلطوية (إيفان إيلّيتـش، مورّاي بوكشـين). وقد أعادت تلك الأفـكار وضع نقـد الإنتاجوية في حقـل الفكر اليسـاري، مزيلـة بذلك ما أصـاب الإرث الإيكولوجـي مـن عدوى توافقاتها في الثلاثينات.

ولئـن ظهـرت خـلال السـبعينات اسـتفاقة في صفوف النخب الصناعية، كما تبدى في تقرير نادي روما لعام 1972 عن "حدود التنمية" فإن تلقي ما ورد فيه لم يكن إيجابيا، فقد اجتمع على انتقاده فـي فرنسـا الشـيوعيون والليبراليون معا، وتجاهله الاشتراكيون تجاهلا تاما لينضموا إلى النيوليبرالية.

كذلـك الحـركات الإيكولوجية التي أخفقت في صياغة استراتيجيا سياسية عامـة، وكان مـن أثـر ذلـك الإخفـاق تهميـش القضايا التـي يدافعون عنها، إذ شـهدت تلك الفترة هجمة جديدة من النيوليبرالية ضد تدخل الدولة من جهة، وضـدّ الاحتجاجـات الإيكولوجية، رغم أن النيوليبرالية ليسـت تيـارا موحّدا، فقـد وجد من بـين منظريـه الأوائل في ثلاثينات القرن الماضي من انتقد التدمير البيئي للعالم مثل الألماني فيلهيلم روبكه (1899 – 1966). إلا أن الغلبة كانت للتيار الذي شكل آلة حرب ضد الإيكولوجيا في السـبعينات والثمانينات، وفي مقدمته فريدريك هايك وجمعيـة مونت بيليرين السـرية، فقد قطع صلته بنـادي روما، ورفـض تعديـل الإنتـاج مثلمـا رفض التحذير من آثـار المنتوجات الكيميائية الملوِّثة. ما يعنـي أن النظام الاقتصادي المهيمن الآن ليس بطيئا فقط في تعامله مع القضية الإيكولوجية، بل هو موجود أساسا لمحاربتها.

> قبِل اليسار كما قبِل اليمين بهيمنة أنموذج تنموي ليبرالي شرس، دون الاهتمام بأثر ذلك على الطبيعة

وفـي نظـر الكاتـب أن الوقت حان لوضع أسـس فلسفة سياسـية لمكافحة هذا الفكر المهيمِن، ولكن ذلك لا يتأتّى إلا بفكـر جمهوري يقطع مـع إرثه القومي، ويوسّـع دائرتـه ليشـمل الرهانـات الاجتماعية والبيئية عبر العالم، ويعلن عداءه الصريح للرأسمالية الإنتاجوية.

والخلاصـة أن الكاتـب يطـرح أدوات تاريخيـة هامـة لفهـم صعوبـة تموقع الإيكولوجيـا في حيثيات الحقل السياسـي، ويبـين أن حمايـة الطبيعة نظّـر لها اليسـار فـي إطـار تقاليد لم يتسـع حجمها منذ القرن التاسع عشر، ودافـع عنها محافظون معادون للحداثة وبورجوازيـون يرومـون الحفـاظ على فضاءات اسـتراحة واستجمام، دون أن يفلحوا في تغيير الأسس الإنتاجية التي هي سـبب في رفاههم. وفي النهاية قبل اليسـار كما قبل اليمين بهيمنة أنموذج تنمـوي ليبرالـي شـرس، دون الاهتمام بأثر ذلك على الطبيعة إلا لماما.

ويبقى السـؤال: هل تفلـح جائحة كورونا في كبح الإنتاجوية؟